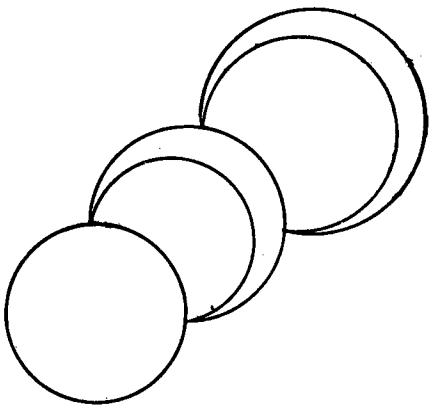

الحداثة بين الفلسفة والتسييس

"دراسة في القصة السورية القصيرة بعد الهزيمة"

صالح الرزوق

قد يكون الحديث عن القصة العربية السورية خلال عام واحد (١٩٨٠) أمراً غير مبرر، لا تاريخياً ولا فنياً. وذلك لاعتبارين:

١ - عدم وجود أي مؤشر إلى ولادة شيء جديد خلال الثمانينات. وإن تاريخ القصة بعد الهزيمة هو في الحقيقة عبء على ما قدمه الرواد قبلها. وغير جديد أن نقول إنه منذ ذلك التاريخ ونحن نفتقد، على مستوى الوطن العربي، إلى قاص بحجم محفوظ أو زكريا تامر أو وليد إخلاصي أو العجيلي...

٢ - خضوع القصة منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ إلى نوع من الشعائرية السياسية، بحيث تغدو كل الظواهر الوجدانية مرتبطة بالهزيمة ومحاولة الخروج منها، مع الأخذ بعين الاعتبار كافة الأساليب والتوجهات الإيديولوجية.

نحن إذاً حين نريد تقييم عام واحد من عمر القصة في سورية، إنما نقيم خلاصة مسيرة السبعينات ككل، وعلى ضوء الإنجازات الهامة للقصة خلال الخمسينات وستينات القرن الحالي.

* * *

كلنا يعرف أن الهزيمة قد خلقت في وجدان الأمة هزة حضارية قوية، حركت ما كان راكداً وواثقاً في أعماق النفس العربية. وكنتيجة لذلك اضطربت كثير من القيم والمعايير، لا بل ماتت واندثرت بغمضة عين.

وكان أن حصل ما لا بد منه، أعني ذلك الضياع والتشتت واللامنهجية، بالطبع إلى جانب السلوكية النضالية الثورية، والسلوكية السلفية الجامدة.

وقد عبرت القصة إلى جانب الشعر عن هذه التحولات، ولكنها في الوقت نفسه عانت من أمراض الأمة الجديدة، لا سيما نزوع القلق المشرف على عدمية قاتلة ونهلستية سوداء في بعض الأحيان (غادة السمان، نزار قباني). وهذا بالطبع غير القلق على المصير الإنساني الذي تحدث عنه توينبي، وربما كان أقرب إلى الفوضى والاضطراب، إن لم يكن هما بالضبط.

وفي هذا التوجه الفجائي، البائس، المتحلل، يندر أن نجد أسساً تصلح كمعيار في عملية البحث والتقييم.

فإذا حصرنا مجال الدراسة على النماذج المتفق حول جديتها، يمكن أن نعتبر همّ الحداثة معيارنا الضائع.

* * *

لماذا وقع اختياري على الحداثة بالذات؟

لقد طرحت مجلة (شعر) هذا الشعار، وبعدها تبنته كل من (أدب، حوار، أصوات، وأخيراً مواقف). لكنها عوضاً عن أن ترفد مسيرة كل من «الآداب» (الالتزام) و «الثقافة الوطنية» (الواقعية الاشتراكية)، خلقت لنفسها مساراً خاصاً، يعتبر الحداثة سلوكاً وغاية. هذه الإطلاقية في طرح الحداثة قد سقطت مع ابتلاع إسرائيل أجزاء هامة من أرضنا العربية. ومع بداية عام ١٩٧٠ أصبح شعار الحداثة هو الجسر الديناميكي الواصل ما بين الالتزام (باعتباره قلقاً وجودياً) والواقعية الاشتراكية (على فرض أنها الأفق السياسي الصائب). لذلك نجد أن تاريخ القصة منذ ١٩٧٠ هو تاريخ استيعابها للحداثة بالمعنى المذكور آنفاً.

وإن الحداثة بهذا الطرح تصبح التجسيد الفني لكل من الالتزام (فلسفة الأدب) والواقعية (تسييس الأدب).

* * *

لا ريب أن من اصطلح على تسميتهم بالأدباء الشباب هم الذين توخّوا إثارة هذه المسألة والتنظير لها، وقد ساعدهم في حملتهم بعض شواهد الأجيال السابقة كعبد الله عبد وصلاح دهني وشوقي بغدادي. ونستطيع القول إن الرياح بدت مواتية جداً لهم بعدما أزاح الموت جورج سالم وخطه الميتافيزيكي ومن بقي من رواد القصة كحنا مينة وزكريا تامر ووليد إخلاصي بدوا أكثر تفهماً لمضمون الحداثة الجديد، ووصل الأمر بوليد إخلاصي أن انتقل بهذا المضمون إلى درجة عالية من الشفافية والجودة بمجموعته الأخيرة (الأعشاب السوداء).

غير أن ذلك كله لا يمنع من الإحساس بوجود توجهات حداثية أخرى هي أشبه بأصوات منفردة ومتفردة.

فالعجيلي ذلك الرائد الكبير لفن القصة لا يزال منذ ١٩٤٨ (بنت الساحرة) وحتى الآن، ضمن اهتماماته الوطنية والقومية المعروفة، مستمراً بالعطاء الشيق والأخاذ. ولعل أهم ما يذكر له فضله الكبير في تنمية أجواء الحكاية العربية الأصيلة، ورفعها من الابتذال إلى بنائية كلاسيكية راسخة.

وعلى القطب المعاكس تماماً ينبري حيدر حيدر لتفجير كلاسيكية القصة وإلباسها ثوباً مغرقاً في الحداثة، مثيراً كل ما هو ممكن من إحساسات ورغبات تدميرية.

وكان لا بد لهذه النزعة التدميرية أن تحرق كل شيء ابتداء من أسس القصة البنائية، وانتهاء بأبطال القصة المفترض وجودهم.

ويندر أن تجد قصة لحيدر حيدر لا يكون فيها بطل وحيد متمرد على عفن التاريخ، ومكتوب على جبينه كلمة الموت.

واضح أن الهزيمة هي الدينامو الفعال لتلك الرؤيا، ما دامت قائمة حضارياً، وأمرّ من ذلك وجدانياً.

نعم. الهزيمة هي اصبع الديناميت عند حيدر حيدر، مثلما هي مسحة الحزن عند قمر كيلاني.

ويبدو هذا الأمر منطقياً جداً، في حال الرجوع إلى جذور المنطق الشرقي. فالهزيمة التي أصابت الرجل بالخصاء الحضاري تحرض ذكورته المقيدة والمهانة، وتدفعه إلى نوع من البطش والانتحارية. بينما تخلف في وجدان المرأة حزناً وقهراً وهماً دفيناً.

ولذلك تجد الرومانسية الحديثة قد غزت قصص المرأة فقط.

فإلى جانب قمر كيلاني توجد أسماء جديدة نسبياً مثل اعتدال رافع وسميرة بريك وهدى الفيل اللائي برعن في معالجة المواضيع النسائية الصغيرة.

* * *

والآن لنتساءل صراحة: كيف ننظر إلى تلك المغامرة المديدة بشعبها واهتماماتها المتعددة؟ لقد أجاب كثير من النقاد عن هذا السؤال، وقالوا: إن القصة تعاني من أزمة هي جزء من سلسلة أزمات أخرى تجتاح الفكر العربي والوجود العربي بالذات.

بينما أعرب يوسف اليوسف في مرات كثيرة عن تفاؤله بجيل السبعينات، ومن قبله كان الدكتور حسام الخطيب قد أكد تفوق القصة السورية ككل، وارتفاع بعض نماذجها إلى مستوى عالمي.

إنها شبكة خطرة من الآراء، تصطاد السمكة على اليابسة لا في الماء. وإن كان في كل منها جانب من الصحة.

إنني لا أشك مطلقاً فيما أورده الدكتور حسام، لأن قصص الدكتور العجيلي وإخلاصي وتامر المترجمة قد نالت قبولاً معقولاً، لا سيما لدى القراء السوفييت والإنكليز. لكن لم نسمع بعد عن قاصّ من جيل السبعينات له هذا الحضور والتواجد، حتى ولو على الصعيد العربي.

وهذا لا ينفي حقيقة التفاؤل الذي يعتقد به يوسف اليوسف، خصوصاً بعد ولادة نماذج متفوقة لجيل السبعينات، أذكر منها على سبيل المثال قصتي «الضيف» و «يمام» لمحمود عبد الواحد، «العريف غضبان» لحسن م. يوسف، «ضابط بكامل ثيابه الرسمية» و «شجرة الكينا» لنيروز مالك، وجميع قصص هدى الفيل. وهي لا تتعدى الثلاث.

إذاً يحق لنا التفاؤل بالنماذج المذكورة وبنماذج أخرى قليلة، مثلما يحق لنا تسجيل كثير من الملاحظات السلبية التي تسمى خطأ بالأزمة.

○ الصراع

تقوم الحياة على الصراع بشكل ملحوظ. ومنذ تفاحة آدم والوجود البشري صراع لا ينتهي. وقد قام فن التخييل مسرحاً ورواية وقصة على هذه الفرضية، وأصبح من مستلزمات القصة وحدودها وجود أحد أشكال الصراع أو الدراما أو التضاد الحدثي. لكن عدم فهم بعض القاصين للإنجازات الحديثة كتيار الوعي والمونولوجات والتعبير السينمائي، ساقهم إلى الاسترسال مع مشاعرهم المتوحدة، أو متابعة الموجودات بشكل حيادي وفوتوغرافي قاتل، فكان أن غاب الصراع، وتفككت مفاصل القصة وتحولت إلى نوع من الهلوسة والثرثرة الزائدة عن اللزوم.

○ التجريب

ساهم التجريب بدوره في خروج القصة عن حدودها، مثلما عمل على تألق أسماء كبيرة لا يجهلها أحد.

فالحداثة والتجريب، كما هو معروف، رؤيا تتسم بالحساسية والليونة. ولا يمكن لأي أحد أن يختبىء خلفهما ليستر ضعفه وجهله بفن القصة، كما يحدث مع الكثير وفي العديد من المناسبات.

والمؤسف في الأمر أن معظم النماذج الرديئة قد دخلت من هذا الباب. باب التجريبية والحداثة، إلى أن خلقت ردة فعل ضد الستينات التي طرحت الشعار وتبنته.

○ المباشرة

هذا المرض العضال أصبح مفزعاً بعدما أساء إلى اسم الواقعية، وبعدما فرّغ محاولات كثيرة اتسمت بداياتها بالجدية والمسؤولية.

فالواقعية التي أرادت التعبير عن التحولات الإيديولوجية والوجدانية الحاصلة في العالم والوطن العربي، كانت تهدف إلى حفز النفس البشرية وتوثيبها. أي أنها نفي سياسي للواقع القائم، ونفي فني للممارسة القصصية القديمة.

وإن ارتباطها بالهدف السياسي قد أعماها في بعض الأحيان، وفي غمرة المعركة القائمة عن الهدف الفني، وجعلها تقول الأفكار مباشرة، مع اللجوء إلى حيل حديثة مثل المقاطع والمونولوجات وغير ذلك. وهذا ما قادها بسهولة إلى الانزلاق في الخطابية ونسيان الذراع الفنية - الرافعة لأساس في القصة باعتبارها نزوعاً تخييلياً يعرب عن الأفكار بالصورة والبنية.

في هذا الجو شاعت (القصة الوثائقية) التي جردت القصة الحقيقية من آخر مرتكزاتها الفنية، وجعلتها كومة من الخطب والمقتطفات والصور المشوهة. مع الإقرار بوجود نماذج نادرة لا نشك بشرعية نسبها الفني.

إذاً الجانب الأكبر من هذا التوجه أدى إلى قصة سيئة السمعة، تعتمد التهريج أساساً لها..

● القصة القصيرة جداً

على الرغم من أن هذه الظاهرة مرتبطة حتماً بالحداثة والتجريب، فقد فضلت أن أفرد لها مجالاً خاصاً لأنها ظاهرة ذات وجهين.

الوجه الأول ما تقدمه من إشراقات شاعرية جميلة.

الوجه الثاني إثارة التوجه الاستهلاكي لدى الكاتب والقارىء معاً، والتعامل مع القصة في عصر الدعاية والإعلان، كأنها جزء من هذا الركب الانهزامي للحضارة. إذ لا يمكن للقصة القصيرة جداً مهما بلغت من الجودة والرهافة أن تمنع القارىء من الإحساس بالسهولة والسرعة، بالرغم من أن كتابتها ليست كذلك. فالفجوة القائمة بين الكاتب والقارىء قد تؤدي إلى تغريب كل منهما عن الآخر، وبالتالي إلى تغريب الإثنين عن فن القصة وأخلاقيتها وجماليتها. بصرف النظر عمّا يقال أحياناً عن نظرية الفعل التراكمي وسوى ذلك.

★ ★ ★

عموماً سجلت القصة العربية في سوريا جملة من التحولات الهامة، أما السلبيات المذكورة آنفاً، فهي سلبيات تغزو كل مرحلة من مراحل النشاط البشري. فما نعرفه اليوم عن أصحاب المعلقات وما نشهد لهم به من عظمة، لا ينفي الوجه السلبي الأسود لمئات القصائد التي غيبها التاريخ وازدراها ونسيها نسياناً تاماً.

ولنا الحق، كل الحق، في أن ننظر بعين التفاؤل إلى مستقبل القصة، ما دمنا لم نفقد وجودنا كأمة، وقدرتنا على الحياة.

إن هذا شرط أساسي في تنمية المواهب والإمكانات الكامنة، فهل يتسع صدرنا للمستقبل، مثلما يتسع المستقبل لأحلامنا وآمالنا؟.

حلب

صدر حديثاً

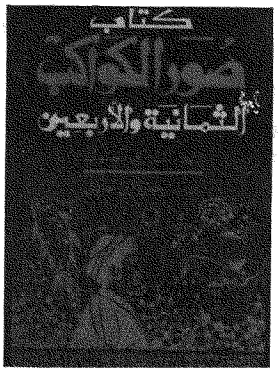

كتاب صور الكواكب الثمانية والأربعين للرازي الصوفي

كتاب يفوق في مادته كتاب «دليل النجوم الثابتة» لبطليموس، وقد كان له أثره في أجيال عده والى يومنا هذا، تناول فيه «الرازي» صور الكواكب في وصف كامل ومفصل لكوكبات السماء، بيّن فيها اماكن النجوم وموقعها في الترتيب العام للكوكبات الثانية والأربعين، مع جداول وصور تفصيلية لهذه الكوكبات.

٥٩٢ صفحة تجليد فاخر ١٧ × ٢٤ ٣٠ ل. ل.

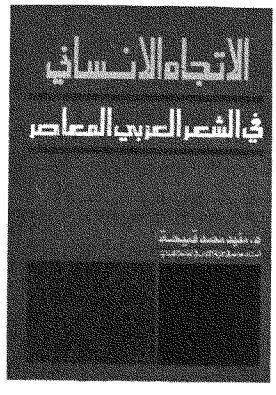

الاتجاه الانساني في الشعر العربي المعاصر

د. مفيد محمد قميحة

جهد متواضع بذله المؤلف كيما يكون كتابه مشتملا على عدد ممكن من الشعراء العرب المعاصرين لتبيان اسهامهم في خدمة المجتمع العربي و الانسان أنى كان - وابراراً للدور البطالي الذي حاضه الشاعر العربي في سبيل الانسان والتحرر في كل بقعة من الأمة العربية.

٥٩٠ صفحة ١٧ × ٢٤ ٣٥ ل ل

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت